الفصل الثاني

طبيعة المعتقدات الوثنية

إن معالجة المعتقدات هو أمر بالغ الصعوبة، لماذا؟ لأنها على حد تعبير «بول رادين» ***Paul Radin*** تعني أشياء مختلفة لأناس مختلفين، ومع ذلك يمكن القول إنها تتكون من شقين: الأول: مشاعر محددة يمكن التعرف عليها بسهولة، والثاني: أفعال محددة (عادات وتقاليد وممارسات) مرتبطة بهذه المشاعر وكلاهما يرتبط بالآخر ويشكلان كلاً واحداً.

ولا شك أن أهم هذه المعتقدات المرتبطة بهذه المشاعر (الاعتقاد في وجود عالم للأرواح) مستقل عن الإنسان، وإدراكه كقوى تفوق قدرة الإنسان وسيطرته على أوجه الحياة، وقد حاول العلماء والباحثون في المعتقدات الربط بين عالم الأرواح هذا وقيم الحياة الأساسية لدى الإنسان، بمعنى آخر إيضاح مدى سيطرة تلك الأرواح على مقدرات الإنسان وقيمه الأساسية (الرغبة في النجاح - تحقيق السعادة - طول العمر). وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، ولعل معالجة «بول رادين» تعتبر، من وجهة نظر خاصة، من أهم هذه المعالجات ولذا آثرت أن أعرضها هنا في شيء من التفصيل. يتساءل «رادين»، لماذا يعتقد الإنسان في وجود قوى خارقة؟ يجيب على ذلك بأن عدم الأمان الاقتصادي يرتبط بالخوف والإحساس بعدم الأمان والضعف والاستسلام والعجز والشعور بعدم الأهمية - وإنه لمن الطبيعي لمثل هذا البناء النفسي والحال كذلك أن يجد الملاذ والملجأ في الانتقال من الواقع إلى الخيال والأوهام هروباً من مرارة الواقع وحدّته. إن أهم ما يشغل بال الإنسان صراعه للحفاظ على ذاته ووجوده من ناحية، ومقاومته بطريقة غير مباشرة لطبيعته الحيوانية ومحاولة التكيف مع

الأوضاع الجديدة، ومن ثم كان هدفه الأساسي الوصول إلى وضع يمكّنه من أن يجعل واقعه ذا شرعية تعويضاً عن حالة الخوف التي يعيشها ويستشعرها، وهكذا تم هذا التحول بسرعة وظهرت المفاهيم الدينية المحددة، والتي ناقشها عالم اللاهوت الألماني «رودلف أوتو» *Rudolf Otto* في كتابه المسمى: (هذا الجحيم) *Das Heilige*، وإن كان «رادين» يرى أن «أوتو» أساء فهم هذه المفاهيم وكيفية ظهورها، وطبقاً لرأي «أوتو» جاء من (الخوف والفزع والإحساس بالضعف) إدراك العظمة، ومن (القصور والشعور بعدم الأهمية) الإحساس الإنساني بالخالق، والذي شرح على حدّ زعمه في «العهد القديم» *Old Testament*، ومن (اختلاط الرؤى) ظهر مفهومه الآخر المتكامل، ومن (القهر والإجبار) نمت الأحاسيس تجاه مفاهيم أخرى مرتبطة بالسحر، وهكذا توافرت الأصول المرتبطة اللازمة لخلق القوى فوق الطبيعية، وارتباط ذلك بالصراع الاقتصادي من أجل البقاء، ولتظهر لنا في النهاية المعتقدات البدائية. هكذا افترض الإنسان القوى الخارقة ليعطي شرعية على حقيقة نشاطه اليومي وإن كان كل إنسان لا يستشعر ذلك بنفس الدرجة، وهذا يفسّر سر اختلاف الأفراد لرهبتهم من القوى الخارقة وبالتالي علاقتهم بتلك القوى[1].

ويلفت «بول رادين» الأنظار إلى ضرورة الاهتمام، ونحن بصدد دراسة المعتقدات البدائية، إلى مدى عمق العقيدة أو مدى الإحساس بالدين والذي يتمثل في حساسية الإنسان تجاه عادات معينة *customs*، معتقدات *beliefs*، خرافات *superstitions*، من الواضح أن الناس لا يستجيبون لها بطريقة واحدة، فهناك من يمكنهم الاستجابة واستدعاء تلك الأحاسيس بسهولة، إنهم المتدينون حقاً، وهم قلة في العدد، وأياً كان الأمر فإن لدينا ثلاث فئات من حيث عمق المعتقدات:

أ- العقائديون والمتمسكون بالمعتقدات.

ب- غير المكترثين بتلك العقائد.

ج- متوسطو العقيدة وهؤلاء يقعون في فئتين: الأولى: أولئك الذين يمكن أن يقوى تدينهم في ظروف معينة وبسهولة. الثانية: أولئك الذين قد يفقدون ما لديهم من إحساس بالمعتقدات في أي لحظة.

---

[1] **Paul Radin: Primitive Religion: It's Nature & Origin, Dover Publications Inc. NewYork 1957, pp. 8-9.**

وأياً كان الأمر فإن المجموعتين الثانية والثالثة تمثلان العدد الأكبر من السكان، وهؤلاء يصعب أن نصل من دراستهم إلى سبر غور المعتقدات، إذ لا بد من محاولة دراسة المتمايزين عقائدياً حتى نتجنب الخلط والغموض، فلنبدأ بالمتمايزين عقائدياً، ثم نقوم بالمقارنة والتحليل بينهم وبين نظرائهم من المجموعتين الأخريتين، ويرجع «رادين» فشل الكثير من الدراسات التي تناولت الديانات البدائية إلى عدم مراعاة ذلك، ومن ثم عدم وضوح الصورة وقصور التحليل العلمي الذي ساد مثل هذه الدراسات.

وليس كافياً أن نعتمد على هذا التقسيم فهناك فترات يكون فيها التأثير الديني قوياً وملموساً وخاصة في الأزمات كما هو الحال حين يتعذر سقوط الأمطار مثلاً، ومن ثم يتهدد الناس القحط والجفاف، أو حين ينتشر المرض أو تقع حالات الوفاة، أو المجاعة هنا يهرع الناس إلى ثقاتهم من رجال الدين وكأنهم يلوذون بهم مناشدين إياهم أن يساعدوهم على الخلاص، كما حدث في أيام المجاعة التي وقعت في منطقة كارلنجا في جبال تلشي وكما يحدث في أيامنا هذه في جبال الأنقسنا أو كورنجو في جنوب كردفان، حيث يلجؤون إلى الزعيم الروحي أو «الكجور» ***Kujur***، والذي يتوجه بدوره إلى أرواح الأسلاف أو الإله «موسلا» ليسبغ عليهم نعمة سقوط الأمطار. وهكذا نجد أن الناس في الأزمات هم أكثر حاجة لتعاليم الزعماء الروحيين وبالتالي أكثر قبولاً وخضوعاً وامتثالاً لآرائهم. هنا يسود الجميع ممن يشاركون في هذه المناشط شعور قوي، إن الأفعال والممارسات التي يقوم بها هؤلاء الزعماء تقوي وتدعم هذه المشاعر وتضفي جواً نفسياً مغايراً لواقعهم المعتاد في حياتهم التقليدية، أما أولئك الذين لديهم الإحساس العميق بالمعتقدات فإنهم يملكون من المشاعر القوية ما يمكنهم دوماً من استدعاء هذه الأحاسيس والمشاعر في أي وقت، وبالنسبة لهؤلاء فإن الحياة برمتها إنما تبدو من خلال ما لديهم من معتقدات وعرف وتقاليد، حيث يتسم سلوكهم بمسحة عقائدية قوية، إنهم في حالة حضور ديني أو عقائدي دائم.

هذا الاختلاف بين هاتين الفئتين من حيث عمق المشاعر والمعتقدات يعتبر المحدد الأساس على حدّ زعم «رادين» في دراسة الظواهر الدينية ولقد لعب الفشل في

إدراك هذا الموقف دوراً خطراً في معالجات المشتغلين بالنظريات الأثنولوجية وبالتالي في تناولهم لفكر وطبيعة الديانة البدائية. من هذا القبيل ما نجده في المعالجة النظرية للعقلية البدائية عند «ليفي بريل» الذي يعتبر من أكثر الكتّاب الذين استخدموا المادة الأثنوغرافية المتاحة، والذي تناول الفكر البدائي، ويذهب «مونتاغيو» ***Ashley Montagu*** في كتابه (مفهوم البدائية) ***The Concept of Primitive*** إلى أن «بريل» استبعد فيما بعد اصطلاح (قبل المنطقي) ***prelogical***، واعترف بوجود صفات مشتركة تلازم كل أنواع التفكير الإنساني، وأن قانون المشاركة ليس وقفاً على العالم البدائي وإن كان «بريل» ظل يستخدم الوصف المزدوج نحن في مقابل البدائية.

لقد ذهب «ليفي بريل» إلى الزعم بأن العقلية البدائية عقلية قبل منطقية، وأن البدائيين ينقصهم النظرة العقلانية الموضوعية، ومن ثم أنكر وجود أفراد بين البدائيين يفكرون كما نفكر نحن بطريقة منطقية، إنه يرى (وخاصة في كتاباته الأولى) أن البدائيين يفكرون على مستوى المرحلة الأولى للتفكير الإنساني والذي يقوم أساساً على الصراع ما بين الذات أو الأنا ***ego*** والعالم الخارجي ***eyternal world*** ومحاولة السيطرة على الآخر، وهذا أسلوب فرويدي، حيث يرى أن الإنسان يخضع لتفكيره بصورة جبرية بحتة، وتلك نظرة خاطئة ولا يمكن التسليم بها بالنسبة للإنسان البدائي الآن باستثناء الذين أشرنا إليهم في تصنيف «بول رادين» من غير العقائديين. وقد يكون أدعى للفائدة ونحن بصدد الحديث عن طبيعة المجتمعات الوثنية، وقبل أن نعرض للمفاهيم والممارسات التقليدية في مثل هذه المجتمعات، أن نقف قليلاً عند ما يعنيه مفهوم «الوثنية» ودلالته، إذ لا شك أن إلقاء الضوء عليه سوف يوضح تلك المفاهيم والممارسات التقليدية[1].

الوثنية

إن كلمة «وثن أو فتش» ***fetish*** مستمدة من أصل لغوي برتغالي ***feitiço*** وتعني (المادة السحرية)، وقد أطلقها البرتغاليون على الديانات الوثنية في غينيا، وانتشر استخدامها منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ويعتبر «دي بروس»

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، مرجع سابق، ص 27-28.

de Brosses (أديب وشاعر فرنسي) أول من استخدم هذا الاصطلاح في معالجته للأديان الإفريقية البدائية، ثم صاغ منه مفهوم «الفتشية» *fétichisme* ويقصد به عبادة وتبجيل الأجسام والأشياء التي يعتبرها الإنسان تعاويذ أو بدود تمنع عنه الشر وتجلب له الخير (حرز)، ثم يأتي «أوغست كونت» *Auguste Comte* ليستخدم المفهوم للإشارة إلى الديانات البدائية التي تعتبر الأجسام والموضوعات الخارجية ذات صبغة حية تشبه حياة الإنسان[1] أما «تايلور» *Tylor* فيرى أن ثمة صلة وثيقة بين الفتشية ونظرية الأرواح التي تتجسد في بعض الأجسام أو الكائنات المادية أو تتعلق بها أو تؤثر عن طريقها، ويدخل منها على وجه الخصوص عبادة الأحجار[2] وهذا ما يؤكده «روبرتسون سميث» *R.Smith*، إذ يرى أن المفهوم يشير إلى عبادة «الأحجار المقدسة» *sacred stones*، وأن الفتشية (بدود أو دكاكير أو فتش) مفهوم شائع لا يتضمن في محتواه فكرة محددة دقيقة، ولكنه يشير إلى شيء ما غامض وبدائي، وأنه يوجد في جميع أنحاء العالم مرتبطاً بعبادة الآلهة، وإن الاعتقاد فيه يعتمد أساساً على سبب ذو صبغة عملية في الديانات البدائية، بل إن معظم الديانات القديمة كانت وثيقة الصلة بآلهة من الحجارة تقيم في صخور طبيعية[3].

وبصفة عامة فإن المفهوم يطلق في اتجاهات متباينة وبمعان مختلفة للإشارة إلى المظاهر الطبيعية التي لا حياة فيها، وقد يطلق على معتقدات الزنوج، وكذلك عبادة الأشياء التي يتصور معتنقوها أنها مقر للأرواح، كما تطلق على الأشياء التي تعتبر بمثابة تعويذة تستمد قوتها السحرية الكامنة من إله أو روح. وأياً كان الأمر فإن الاصطلاح استخدم للإشارة إلى عبادة الأحجار أو الأخشاب أو الجبال أو مجاري المياه أو الأشجار فضلاً عن التماثيل أو الدمى وما يرتبط بها من قداسة واحترام بالغ كما نرى لدى كثير من المجتمعات النيلية في جنوب وجنوب شرقي السودان، ولدى كثير من المجتمعات التقليدية في الحبشة وغينيا الجديدة وخاصة قبائل «البابوا»

---

(1) ذهب أوغست كونت *Auguste Comte* في تتبعه لتطور الديانات الإنسانية إلى أن الفتشية تمثل الصورة الأولية للديانات البشرية وأنها سادت في المرحلة الأولى التي أطلق عليها مرحلة الميثولوجيا الفكرية. أما «ماريت» *Marett* و«كنج» *King* فإنهما يعتبرانها تمثل مرحلة من مراحل تطور الديانة في الجماعات المتأخرة وهي المرحلة التي سميت مرحلة ما قبل عبادة الأرواح (معجم العلوم الاجتماعية - تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مدكور، ص 446 وما بعدها).

(2) د. أحمد أبو زيد: تايلور، دار المعارف - القاهرة 1959، ص 152 وما بعدها.

(3) **Robertson Smith: Religion of the Semites, p. 209.**

Papua وكذلك قبائل «البانتو» *Bantu* والهندوس في الهند وبيرو وميلانيزيا وقبائل اللانجو من الهنود وغيرهم، فالوثني في مثل هذه المجتمعات يعتقد أن المادة تجلت فيها روح ومن ثم يتخذها وثناً له. ولقد أتاحت المادة الأثنوجرافية التي قام بجمعها د. فاروق إسماعيل العديد من الأمثلة لظاهرة الفتشية ولعل أهمها تلك التي تنتشر في جبال الأنقسنا شرق السودان، حيث يعتقدون بقداسة جبلي بونق وليفر، وليس لديهم تفسير سوى أنها جبال مقدسة، وأن أرواح البشر فضلاً عن الكائنات الأخرى تستقر بها بعد الموت، فإذا علمنا أن هؤلاء يقدسون أرواح الأسلاف وينزلونها منزلة القداسة أدركنا سر قداسة هذين الجبلين فإذا أضفنا جبل (كامول)، حيث الـ «وي تل» أو مسكن الإله ويعتقدون أن روح الإله تتردد عليه بين الحين والآخر فضلاً عن مرور البقرة المقدسة من جبل (كامول) إلى جبل (سودا) ومن ثم زودته الآلهة بقوة خارقة، ويُجمع الوثنيون في جبال الأنقسنا أن الحوادث التي وقعت في محاولة شق الجبل مردها إلى أن روح الإله «تل» ترفض مثل هذه الأعمال، من هذا القبيل ما ارتبط بالحجارة المقدسة أو حجر الكجور «كاسوللي» أو «تشيللي» في جبال كورنقو جنوبي كردفان، إذ يعتقدون أن الأرواح تستقر فيها وتتخذها مقراً رئيسياً لها وأنها تسمع وتفهم ويمكن للكجرة أن يخاطبوها، وقد يسكبون عليها الماء والمريسة (الخمر الشعبية) من حين لآخر، ويتوجه إليها الكجور في الأزمات. وكذلك الأشجار المقدسة والتي سوف نشير إليها حيث الاعتقاد السائد أن أرواح الأسلاف تجتمع عندها، ومن ثم فلا بد من التقديم لها بين الحين والآخر، بل والاحترام البالغ عند المرور بها وعدم إحداث صخب أو ضجيج. فإذا انتقلنا إلى كارلنجا في جبال تلشي لوجدنا العديد من المواد التي يعتقد أنها ذات فعالية سحرية بما لديها من قوة كامنة كما نجد في القرط الحديدي المقدس *Tygun* والذي يثبَّت في أذن الزعيم اليسرى، يضعه عند ولايته مساعد الزعيم للشؤون الطقسية وحامل الرمح المقدس «أبانيورا» *Abanyora*، وفي جبال *Talodi* يحتفظ صانع المطر في مسكنه بقطعة من إناء خزفي يضع عليه ثلاث قطع صغيرة من حجارة الرحى، حيث يستعين بها دوماً في ممارسة الطقوس[1].

---

[1] E. E. Evans-Pritchard: Theories of Primitive Religion, Oxford University press, 1965,p.6.

وهكذا نجد أن مفهوم الوثنية في هذه الديانات التقليدية يرتبط أساساً بفكرة الاعتقاد في الكائنات الروحية وتلك وثيقة الصلة بالمفاهيم والممارسات التي سوف نعالجها الآن فليس ثمة مفهوم أو اصطلاح إلا وارتبط بالكائنات الروحية أو الكائنات العليا بصورة أو أخرى، الأمر الذي يجعلنا نرفض مع «إيفانز بريتشارد» وبشكل قاطع ما ذهب إليه «بيكر» *Samuel Baker*، والذي كتب مقالاً له إلى الجمعية الأثنولوجية بلندن عام 1866، مشيراً إلى معتقدات القبائل النيلية الشمالية أنهم دون استثناء لا يعرفون الاعتقاد في «كائن أعلى» *supreme being*، وليس لديهم أي شكل من أشكال العبادة أو الوثنية *Idolatry*، فالفيتشية ظاهرة عالمية تنتشر في المجتمعات التقليدية وإن اختلف عمق الإيمان بها ودلالته[1].

القوى الغيبية

تؤمن العقلية البدائية بالقوى الغيبية وغير المرئية، أي أن البدائيين يعيشون ويفكرون ويحبون ويتحركون ويعملون في عالم لا يتفق مع عالمنا في كثير من الوجوه، ولذلك نرى أن كثيراً من الأسئلة التي تواجهنا بها التجارب غير موجودة بالنسبة إليهم، لأن لديهم جواباً مجهزاً من قبل، أي القوى الغيبية.

تتصور العقلية البدائية أن مجموع الكائنات غير المرئية لا تنفصل عندهم عن مجموع الكائنات المرئية، وليست الكائنات الخفية في نظرهم بأقل وجوداً ونشاطاً من الكائنات المرئية، بل إنها أكثر منها تأثيراً وإرهاباً، ولذلك فهي تشغلهم أكثر وتصرف عقولهم عن التبصر والتفكير فيما نسميه نحن بالمدركات الموضوعية ولو إلى حد يسير.

يمكننا على الإجمال أن نقسم التأثيرات غير المرئية التي تشغل بال العقلية البدائية بصورة دائمة إلى ثلاثة أقسام، وإن كانت كثيراً ما تتداخل بعضها في بعض، وهذه الأقسام هي: أرواح الموتى والأرواح بأعم معاني الكلمة، أي تلك المؤثرات التي تجعل الحياة تدب في الأشياء الطبيعية من حيوانات ونباتات وكائنات جامدة كالأنهار والصخور والبحار والجبال والأدوات المصنوعة ...إلخ، وأخيراً

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، مرجع سابق، ص 31.

الطلاسم والتعاويذ التي تعد من فعل السحرة. وقد تمتاز هذه الأقسام بعضها عن بعض بشكل واضح جداً في بعض الأحيان، فالمطببون (أطباء مزيفون) في لونجو لا يشتغلون إلا مع الأرواح التي تسري في المواد المقدسة (فيتش) ولكنهم لا يرغبون بأي حال أن يتصلوا بأرواح الأموات التي يخشونها كثيراً. وعند قبائل البابو في غينيا الجديدة يلعب السحر عندهم دوراً أعظم من الدور الذي يلعبه الخوف من الأرواح، فإذا لم يسقط المطر، أو إذا سقط أكثر مما ينبغي، وإذا ساءت الحاصلات الزراعية، أو إذا ماتت الخنازير، وإذا لم يأت الصيد البري أو البحري بالثمرة المرجوة، وإذا زلزلت الأرض زلزالها، وإذا طغى مد البحر واكتسح قرية على الشاطئ، وإذا حدث مرض أو موت... إذا وقع أي شيء من هذا القبيل لم تكف الأسباب الطبيعية لتفسيره بأي حال، بل لا بد أن يكون هناك سحر من وراء الستار. وهناك تطوران متباعدان للأرواح: أحدهما يرى أنها شياطين أو آلهة حقيقية لكل منها اسمه وخصائصه، بل عبادته أيضاً في كثير من الأحيان. والآخر هو ذلك التصور العام المشخص على السواء الذي يعتبر الأرواح قوة مستقرة في الأشياء كالمانا دون أن تكون هذه القوة محددة.

وليست لحظة الموت عندهم وعندنا سواء، فنحن نعتقد أن الموت يتم حين يتوقف القلب عن الخفقان وينقطع النفس تماماً، أما في الجماعات المتأخرة فيعتقدون أن الموت حين يحدث يغادر الجسم ضيفه حتى ولو لم تنطفئ الحياة الفيزيولوجية بعد. وضيف الجسم هذا يشترك في كثير من الصفات مع ما نسميه نحن الروح. وتعتبر هذه الفكرة من الأسباب الداعية إلى إسراع البدائيين في دفن موتاهم في أغلب الأحيان[1].

وتنحصر أولى المدركات التي تهتم العقلية البدائية باستجلائها في أفعال القوى الغيبية التي يشعر البدائيون أنها تحيط بهم من كل جانب ومن طبائع هذه القوى التي لا ترى ولا تدرك بالحواس كما أنها لا تكف عن نفسها إلا في ظواهر قد تكون واضحة أو غير واضحة، قليلة الدلالة أو ضعيفة الدلالة، كثيرة الورود أو قليلته. وهناك مظاهر أخرى أكثر مباشرة وأكثر اطراداً وبواسطتها تخبر تلك

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، مرجع سابق، ص 194-195.

القوى بما سيقع للأحياء وكأنها تتخذ وسيلة إنذار الفرد أو الجماعة الاجتماعية بما سيحدث، ومن هذه الظواهر الأحلام والفؤول. ومن المعروف أن العالم غير المرئي يكون في نظر العقلية البدائية عالماً واحداً فالاتصال عندهم مستمر بين ما نسميه الحقيقة الحسية وبين القوى الغيبية. ولكن هذا الاتصال لا يحصل بصورة أتم إلا في الأحلام، حيث ينتقل المرء من أحد العالمين إلى الآخر ذهاباً وإياباً دون أن يشعر[1].

الأحـــلام

تترك الروح الجسم الذي تحل فيه مؤقتاً وتذهب في بعض الأحيان بعيداً جداً لتتحدث مع الأرواح أو الأموات، وإذا ما استيقظ الشخص رجعت إليه وأخذت مكانها في جسمه. لذلك إذا منعها سحر أو حادث من دخوله ثانية فقد يصاب صاحبها بمرض يتبعه الموت. وفي بعض الأحيان تأتي أرواح الموتى نفسها أو بعض القوى الأخرى لزيارة الحالم أثناء نومه ويعمل الحلم على مد البدائيين بمعلومات لا تقل قيمتها، بل قد تزيد على قيمة المدركات الحسية التي يحصلون عليها أثناء اليقظة. ويؤمنون إيماناً تاماً بأن الأحلام تضعهم في علاقة مباشرة مع القوى التي لا ترى، وهم لا يرون في ذلك أي غرابة. ويعلق البدائيون في ذلك أعظم نصيب من الأهمية ولذلك نراهم في كل صباح يتساءلون فيما بينهم عن أحلامهم ويتحاكونها ويفسرونها. إن القاعدة عند البدائيين أن كل ما يرى في الحلم حقيقي. ولعل العقول البدائية تعتقد فيما تراه في الحلم أكثر مما تعتقد في غيره بفضل ما للحلم من أصل غيبي، يزيد في قيمتها ويؤكد حقيقتها. لذلك لا يثق البدائي في شيء أكثر من وثوقه فيما يراه في الحلم. وفي الغابون يعتبر الحلم برهاناً أصدق من برهان الشهادة، ولا يشك البدائي في صدق الحلم. ففي نظره أن كل ما يعلن عنه الحلم سيحدث وكل ما اطلع عليه النائم قد حدث بالفعل. ويبدو من معلومات الباحثين أن بعض الهنود الحمر لا يفرقون بين الحدث المرتكب في الحلم والحدث المرتكب في وضح النهار، ويحدث للبدائي أن يرى في الحلم بعض الحوادث على أنها ستقع في المستقبل فمثل هذه الحوادث تعتبر مستقلة في نظرة لأنه يتوقعها في المستقبل وفي الوقت نفسه

---

[1] المرجع السابق، ص 196.

تعتبر في المستقبل. فمثل هذه الحوادث تعتبر ماضية لأنه رآها في الحلم وبهذا الاعتبار يعدّها وقعت بالفعل. والخوف من السحر هو الهم الدائم الذي يقلق بال الجماعات في إفريقيا الجنوبية. وحَلِمَ رجل أن حياته في خطر وأن الذي يدبر له هذا الخطر شخص كان يعتبره دائماً من أخلص أصدقائه، فلما استيقظ قال: «ما أغرب هذا الأمر إن ذلك الرجل لم يرتكب دنيئة قط، فكيف يسعى لقتلي! ذلك ما لا أفهمه ولكن لا بد أن يكون الأمر حقاً لأن الأحلام لا تكذب أبداً». وتعتقد بعض القبائل في الكونغو بأن الأحلام تنبئ الأحياء في أثناء الليل بما يريدون معرفته والأحلام عندهم هي الحقيقة. وإذا رأوا في المنام أحد أقربائهم الموتى اعتقدوا بأن روحه جاءت فعلاً لتقدم إليهم نصائح الميت وتعبِّر لهم عن رضاه أو سخطه وعن رغباته وأمانيه. لماذا يرى الهندي الأمريكي أن طاعة ما يأمر به الحلم ضرورة قصوى؟ أو بعبارة أدق لماذا يرى حتماً، تنفيذ ما فعله في الحلم بمجرد أن يستيقظ من نومه؟ كثيراً ما وجه هذا السؤال إلى الآباء اليسوعيين وكانوا يجيبون عنه بصورة واحدة لا تتغير، إذ يقولون: هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة للهنود الأمريكيين، إذ إنهم يؤمنون بأن الموت سينتابهم إذا لم يتحقق ما رأوه في المنام[1].

الفــؤول

ويلعب الفأل أيضاً دوراً خطيراً عند البدائيين وبه يتنبؤون عن أن المشروع الفلاني ينجح أو يفشل، وفيما إذا كانت القوى الغيبية راضية عن العمل الفلاني أو أنها تنفر منه، وظل الاعتقاد في قوة الفأل سارياً حتى في الأديان القديمة وقد مارسه القدماء واختصّ به رجال من الكهنوت في كل الأديان وما يزال. ذكر ليفي بريل *Lévy Bruhl* مؤلف كتاب: (العقلية البدائية) عن الفؤول ما يلي: «إن الأحلام كما أشرنا تكون أهم جزء في تجارب العقلية البدائية لأنها هي التي تصل بينها وبين العالم غير المرئي بطريق غير مباشر. ثم تأتي الفؤول في الدرجة الثانية من الأهمية، لأنها هي الأخرى تمد هذه العقلية ببعض المعلومات عن فعل القوى الغيبية التي تحس بوجودها في كل مكان حولها. فالفؤول ضروب من الكشف تحدث تلقائياً ويفسرها

---

[1] المرجع السابق، ص 197.

البدائي على التو من دون حاجة إلى تردد وذلك بواسطة أنواع من الارتباك الزائف تصل بين تصوراته الجمعية. وللفؤول عند البدائيين صور شتى كأن يسمعوا الطائر يصيح من جهة الشمال، أو ليروا ذلك الحيوان يعبر الطريق في أثناء المسير وهلم جراً. والبدائي يدرك الدلالة السعيدة أو المنحوسة لهذا الفأل أو ذاك بمجرد أن يدرك الحادثة التي تكونه، وحينئذٍ يتابع السير في المشروع الذي بدأه بشجاعة أو يتخلى عنه». ولا بد من إيراد ملاحظتين لكي نحسن فهم تأثير الفأل في عقلية البدائيين:

أولاً- تعلن الفؤول مثلاً أن المشروع الذي سيبدأ فيه المرء سوف ينجح أو يخفق، وقد تحذِّر من أن خطراً لا يخطر بالبال سيقع عاجلاً أو آجلاً. والبدائي يرى أن كل أمر مفاجئ يعتبر كشفاً وإعلاناً عن أمر ما. وإن كل حادثة عرضية لها دلالتها القوية، إذ لا يوجد شيء اعتباطي وكل ما خرج عن المألوف ولو قليلاً يعلن عن فعل القوى الخفية. فالفأل إذن نوع من حدس يشتمل على أنواع أخرى كثيرة وهو ضرب من الإعلان عن حوادث مستقبلة[1].

ثانياً- ترتبط هذه الخاصية العقلية التي يتميز بها البدائيون على النص الذي أوضحناه بنظرتهم إلى السببية، وهي سببية من نوع غيبي. والعقلية البدائية لا تهتم بأن تصعد أو أن تنزل سلسلة الشروط التي تقوم هي نفسها على شروط أخرى. ولا بد أن يكون للفؤول عند البدائيين أهمية أخرى. ولما كانت الأسباب تنحصر عند البدائيين في بعض المظاهر الغيبية والخفية، كان للفؤول في نظرهم نصيب رئيسي في إحداث ما تعلن عنه، فليست وظيفتها الوحيدة أن تعلن عما سيقع، بل إنها تشترك اشتراكاً جوهرياً في إحداث ما تعلن عنه.

وتحظى الفؤول عادة بأهمية عظمى في تنظيم الحياة عند كثير من الجماعات المتأخرة ولكنها لم تصل في أي مكان إلى درجة الأهمية والنماء التي وصلت إليه لدى قبائل «الدياك» ***Dayak*** ولدى الجزء الأكبر من سكان بورنيو. لذلك كانت الأحوال في هذه الأماكن من أنسب الظروف التي تساعد على دراسة هذه الظاهرة دراسة صحيحة مجدية. أبان الأستاذ برهام مبلغ السلطة التي تعترف بها القبائل الأهلية للفؤول والقدرة التي يعزونها إليها فقال: «إنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أنها

---

[1] المرجع السابق، ص 198.

أساس كل نجاح ولا ينفكون يستشهدون على ذلك بالقصص التي لا ينضب معينها عندهم، ويروون حالات الإخفاق والمرض والموت التي دلت عليها الفؤول ولم تأبه بها حماقة الحمقى فحاقت بهم عواقبها».

إن مصادر الفؤول التي يعتمد عليها الأهالي في كل ظروف الحياة الفردية والاجتماعية تنحصر في سبعة طيور، يضاف إليها عدد من الحيوانات وهي: الوعل والإبل والغزال والأرماديلو وأخرى غيرها مثل الحرباء والخفافيش والبيزون والكوبرا والفأر، وتستطيع كل هذه الحيوانات أن تعلن الفؤول بطرق مختلفة. ويستخرج الفأل من طيران الطائر وصياح الحيوان والاتجاه الذي يأتي منه أو يذهب إليه فليست العلامات التي تظهرها الطيور والحيوانات الأخرى مجرد إشارات ونذر أو إعلان لما سيقع، وإنما هي أسباب له في الوقت نفسه.

وترى العقلية البدائية من هذه الطيور والحيوانات قوى غيبية تتوقف عليها الحوادث التي تنبئ عنها، والأهالي لا يصلون إلى الاعتقاد بأن الطيور المقدسة تنتج الحوادث بسبب أنها تعلن عنها، بل إنهم على العكس من ذلك يعتقدون أن هذه الطيور تصنع نجاح المشروعات أو إخفاقها ويلهج لسان البدائي بالثناء حين يلمح فألاً ميموناً فيشعر بالتحمس للعمل وبالقوة والوثوق من النجاح. وحينئذٍ يبذل في عمله كل ما يستطيع من مجهود، والواقع أنه كثيراً ما ينجح. فإذا رأى فأل الشؤم امتنع عن العمل ما أمكن. فإذا لم يكن الامتناع ممكناً يبحثون عن الوسائل اللازمة للتغلب على الصعوبة بتأويل الفأل المشؤوم تأويلاً حسناً فيمكن مثلاً اعتبار فأل الشؤم قابلاً للنقض. فيستمرون في البحث عن فأل ميمون دون أن يثبط من همتهم ظهور فأل مشؤوم. وإذا ظهر الفأل المأمول فإنه ينسخ ما قبله.

وفي الكونغو العليا إذا رأى الناس فرساً نهرياً يقترب من قرية ما فقد يعدونه فأل حرب بالنسبة لأسرة معينة. ويجوز أن تكون حالة الغرق نذيراً بالجوع والكوارث لإحدى الأسر، أو الشجرة الطافية على سطح النهر والمنسابة مع التيار يصح أن تكون فأل نحس، وأمراض عديدة بالنسبة لقرية ما. فإذا قابل أحدهم فألاً منحوساً وهو في طريقه إلى الحقل في صبيحة هذا اليوم حرمت عليه زراعة الأرز طوال السنة، ولا يجوز له أن يزرع غير البطاطا أو الذرة. ولذلك يفضل الأهالي لكي

يتجنبوا هذا الخطر أن يذهبوا إلى الحقل لأول مرة في جنح الظلام. وأشار المعنيون بحياة الجماعات المتأخرة إلى وجود نوع من الفؤول التي تزعج البدائيين إزعاجاً شديداً وتدفعهم إلى استعمال أعنف الوسائل للوقوف في سبيل الكارثة التي يتهددهم بها ظهور الفؤول، وهي تنحصر في الكائنات الممسوخة، وفي بعض الظواهر التي تشذ عن المعتاد. فإذا ولد مولود وخرجت قدماه قبل رأسه عند الوضع قتلوه. وإذا رأوا عنزة تأكل روثها اعتقدوا أن سبب هذه الظاهرة الغريبة وجود سحر بها وأنه لا مناص من تضحيتها. وكذلك إذا ولدت عنزة توأمين في أول ولادة لها فهذا من أثر السحر، ولا بد من قتل ولديها، وإذا كانت بقرة ترعى فلفت ذيلها حول شجرة وجب قتلها في الحال. والطفل الذي يولد في وضع غير معتاد والتوائم أياً كانت لا تعتبر فؤولاً مشؤومة، بل تعد في نظر قبائل البانتو في إفريقيا الشرقية خطراً على صاحبها وعلى الأسرة وعلى القرية بأسرها. فهي تكشف بحالتها أو بفعلها عن وجود بذرة شريرة، فيها قوة غيبية تسبب الموت ما لم يقض عليها بقتل هذه المخلوقات التي تحملها. وعند قبائل الهوتنتوت في إفريقيا الجنوبية إذا أخذت الدجاجات تصيح صياح الديكة، أخذت وقتلت أو طوردت حتى تموت وإلا فإن صاحبها يموت لا محالة[1].

العرافة

إن المدركات المباشرة التي تتكون منها تجارب البدائيين كثيرة ومنها تلك التي تأتي من العالم غير المرئي، والتي تكشف لهم القوى الغيبية التي تغمره. والبدائيون أشد اتصالاً بهذا النوع الأخير. فرخاء الهيئة الاجتماعية وصحة كل عضو من أعضائها وحياته كل ذلك يتوقف على التأثيرات الطيبة والسيئة التي تنصب عليهم من هذا العالم. وهم لا يستطيعون أن يأملوا في الوصول بمشروع من مشاريعهم إلى بر السلامة إلا إذا وثقوا من أن القوى الغيبية التي تقاومه مقاومة فعالة. وهذا هو مصدر حاجتهم الملحة إلى التحقيق من أنها في جانبهم وأنها ستكون رائدهم وكيف يمكنهم أن يتأكدوا من ذلك؟ لا شك في أن القوى الخفية كثيرة الحدوث وأن البدائي مجبول على أن يرى بعضاً منها في كل مكان، وأن يعتبر بعض الظواهر

---

[1] طه الهاشمي: المرجع السابق، ص 200- 201.

العادية وجل الظواهر الغريبة من هذه العلامات. والحلم أبسط هذه الوسائل وأسهلها. ذكر أحد الآباء اليسوعيين عن البدائيين: «إنهم يجعلون من الحلم إلههم وكان الصوم وسيلتهم العادية لالتماس الحلم المرغوب فيه». وقال آخر: «إنهم يصومون تكريماً للآلهة لكي يعرفوا منها حدوث مسألة ما». والهنود الأمريكيون إذا همهم أمر حرب أو صيد يقضون ثمانية أيام لا يكادون يتناولون خلالها أي طعام. ثم يبلغ بهم الإصرار ألا يفطروا إلا بعد أن يروا في الحلم ما يريدون، كأن يحلموا فيه مثلاً بقطيع من حيوانات الصيد أو بعصابة من أعدائهم وقد ولت الأدبار. وليس ذلك بالأمر العسير على دماغ فارغ وقد أنهكه الصوم ولم يفكر طول نهاره في شيء آخر.

والعرافة التي يمارسها الهنود في شكل «حلم مستشار» تنطوي في آن واحد على محاولة المعرفة وجهد لضمان النجاح المرتجى ويمكننا أن نعتبرها نوعاً من الصلاة أيضاً ويلجأ كثير من الجماعات إلى الحلم المستشار للاتصال بالأرواح الحارسة في بورنيو ويعتقد أهلها بأنه لا يوجد أنجح من الدواء الذي تكشف عنه الأحلام.

كذلك تلجأ الشعوب البدائية إلى وسائل أخرى للاتصال بقوى العالم الخفي. والاستجواب المباشر أبسط هذه الوسائل وأنجحها إذا كان ممكناً. فيستعملونه مع الأموات الذين لم تنقطع مشاركتهم للأحياء. ولاسيما إذا كانوا من الأموات الجدد، لاعتقادهم بأنهم غير بعيدين عنهم أو مع الذين على وشك الموت فيجتمع حوله أفراد الأسرة. ولا يسمحون عند ذلك بإشعال النار في المنزل خشية أن تخيف الروح ويوجه إليه ضروباً من شتى الأسئلة. وصوت المحتضر هو الذي يحمل الأجوبة إلى السامعين. ولكن الروح هي التي تتكلم وليس المحتضر. ولا يعتبرون الموت قط، أو لا يكاد يعتبر قط أمراً طبيعياً في الجماعات البدائية ولذلك تحتاج أسرة الميت إلى معرفة صاحب السحر المسؤول عن موته والميت نفسه هو خير من يعرف غريمه. لذلك يستجوبه الأحياء ويعتقدون أنهم بهذه الصورة يصيبون هدفين في آن واحد: فيميطون اللثام عن الساحر الذي يعد نشاطه القاتل خطراً دائماً يتهدد المجموعة الاجتماعية وفي الوقت نفسه يظهرون للميت الحديث عنايتهم بالانتقام له، ومن ثم يتجنبون نتائج غضبه الذي لا يتردد في صبّه عليهم[1].

---

[1] المرجع السابق، ص 201-202.

ويباشر أهل بريطانيا الجديدة استجواب الميت بالصورة الآتية: - يجتمع أقرباء الميت خارج المنزل في الليلة التي تلي الوفاة وينادي أحد المطببين روح الميت بصوت عال ويطلب إليها أن تدل على الشخص الذي سحرها. وإذا لم يحصلوا على الجواب ذكر الطبيب اسم شخص مرتاب فيه وحينئذٍ يرهف الحاضرون آذانهم. فإذا لم يسمعوا جواباً ذكر اسم آخر وهلم جراً إلى أن يسمعوا صوتاً كنقر الأصابع على لوح خشبي أو على حصير، ويعتبرون هذا برهاناً قاطعاً على أن صاحب الاسم هو الجاني. ويخشى عدد كبير من الجماعات المتأخرة الاحتكاك بالموتى، إذ يعتقد أنهم خطرون وميالون إلى الاعتداء، ولذلك يؤدون إليهم الواجبات الإلزامية، بل يبكونهم بإخلاص، ولكنهم على الرغم من ذلك يرغبون في إقصائهم أي قطع ضروب المشاركة التي لا تزال تصل بينهم وبين الأحياء بأسرع وأتم ما يمكن ويحدث ذلك على الأقل في أثناء الفترة الأولى التي تلي الوفاة. إن إقامة الطقوس الجنائزية من شأنها في نظرهم أن تسارع بالجثة إلى التحلل الطبيعي، وإذا ما تم ذلك اعتقدوا أن الميت قد انفصل نهائياً من مجموعة الأحياء عن طريق الاحتفال الجنائزي الثاني الذي لا يزال تشاهد آثاره على الأقل حتى يومنا هذا. وتعتقد بعض الشعوب بإمكان تبادل الخدمات بين الموتى والأحياء، من ذلك أنهم يحتفظون أحياناً ببقايا الموتى ويحيطونها بشيء من الإجلال فلا يمر أحد الأعياد حتى يقدمون القرابين من الطعام أو غيره وينتظرون أن يعرف الأموات لأحفادهم هذه المكارم فيجدون في الإحسان إليهم. وكلما وقع الأهالي في حيرة أخذوا جمجمة قريب وجددوا طلاءها وغطوها بأوراق ثم راحوا يكلمونها ويطلبون إليها النصيحة. وعند النوم يضعون الجمجمة على حصير بالقرب من رؤوسهم وإذا وقع لهم أمر حسبوا أن روح قريبهم الميت هي التي حدثتهم ونصحتهم بما ينبغي فعله.

والانتقال من هذه الاستشارات إلى العرافة أمر يسير: وفي هذه الحالة لا يعمد الأهالي إلى استجواب جمجمة الميت شخصياً ولكنهم يعتقدون أن لها قدرة غيبية تجعل منها أداة صالحة نسميها بالعرافة ولا بد من توافر بعض الشروط لكي يمكن استعمالها هذا الاستعمال. وحينما تزخرف الجمجمة بالشكل المطلوب وتستعمل كما ينبغي تصبح عرافاً ناجحاً جداً. ويستخدمها الأهلون بوجه خاص لاكتشاف

السارق أو الرجل الذي رمى آخر بالمرض عن طريق السحر. إن نجاح العرافة يتوقف على طريقة استعمال الجمجمة. وهذا الاستعمال مقصور على رجال عشيرة معينة واتباع طريقة بعينها. فليست الجمجمة من الأدوات التي يمكن لكل شخص أن يستخدمها. وقد يكون من الشروط التي يجب أن تراعى في الجمجمة أنها جمجمة ميت قوي. ومن العرافة التي تدل على شفاء المريض أو عدمه عملية اقتناص حيوان صغير يسمى (الخلد) وهو حي فيجتمع المريض وأسرته أمام باب العشة، ثم يأتي الشخص الذي اقتنص الحيوان فيمسكه من مخلبه وحينئذٍ يبصق عليه المريض أولاً ثم هذا الشخص ثم الآخرون، كل منهم بدوره وهو يقول: «يا أجدادنا ساعدونا واجعلوا هذا (الخلد) ينتزع المرض». وبعد ذلك يوضع (الخلد) حياً في ثقب ويوضع فوقه إناء مقلوب فإن عكس لنفسه طريقاً تحت الأرض في اتجاه يبعد عن العشة برئ المريض، وإذا حفر في اتجاه معاكس مات المريض.

ومن صور العرافة فحص أحشاء الضحايا، ولاسيما الكبد. ففي بورنيو يلجأ الدياك في معظم المناسبات إلى العرافة بواسطة كبد خنزير فإذا ظنوا أن هناك من يتربص بهم من كمين أو أحسوا أنهم مهددون بسوء الطالع أو المرض هرعوا إلى الخنزير يطلبون منه الخبر اليقين، يتوسلون إليه ألا يوقعهم في الخطأ وألا يتوانى في حمل رسالتهم إلى الكائن الأعلى. بل قد يحاولون خداعه ويوهمونه بأنهم لن يقتلوه ولن يأكلوه ولكنهم لا ينتهوا من كلامهم حتى يعجلوا بقتله مخافة أن يغير الرسالة إذا علم أنه سيقتل، وبمجرد أن يكف الخنزير عن الشخير يشقون جنبه ويخرجون الكبد بسرعة ومهارة ويضعونه في طبق ويجتمع حوله الشيوخ يتناقشون في الفأل ويختبرون بإمعان حجم الكبد وكل حلمه من حلماته ومنظر المرارة وكمية الشحم، إذ إن لكل من هذه الأشياء دلالته. وكانت أعمال العرافة بمعناها الحقيقي من الأمور التي لا غنى عنها في الجماعات لأنهم يعتقدون بأن نجاح الميت يتوقف توقفاً تاماً على قوى العالم الخفي التي يتوسلون بكل الوسائل لمعرفتها وكسبها إلى جانبهم قبل أن يشرعوا في أي عمل. ففي تاهيتي يعلقون دائماً أهمية عظمى على إرادة الآلهة، فإذا كانت راضية كان النصر محققاً، وإلا كان الإخفاق مؤكداً ومن ورائه الموت، ويلجؤون لمعرفة إرادة الآلهة إلى العرافة أو إلى السحر. وكثيراً

ما يقدرون نجاح الرحلة أو إخفاقها تبعاً للتقلصات الفصلية لقلب الحيوان المضحى به، أو لحالة كبده أو تبعاً للحركات غير الإرادية التي تصدر عن الضحية البشرية وتتلوى في سكرات الموت أو تبعاً لمنظر الضحية المذبوحة، بعد وضعها فوق المذبح وإذا أجروا العرافة بواسطة العظام جعلوا نفس الدور الفعال الذي يجعلونه للضحايا فهي لا تعلن النتيجة فحسب، بل تسببها أيضاً. وفي نهاية المرحلة الثالثة ينثر الساحر العظام ويقول إنها تسمع وتجيب كما يجيب البشر. وعند البانتو في إفريقيا الجنوبية تلعب قطع العظام دوراً مهماً فإذا أضر بهم أمر مهم لم يجرؤوا على البت فيه قبل أن يستشيروا العظام السحرية التي تكشف لهم الطريق الذي يجب اتباعه ويلجأ إليها الرؤساء في كل الملمات فإذا أعوزهم المطر أو هددتهم كارثة أو نزل أرضهم بعض الأجانب أو عن لهم أن يقوموا بحملة حربية فما عليهم إلا أن ينادوا ضارب العظام الخاص بهم فالعظام بنظرهم تتكلم وما عليهم إلا أن يفهموا كلامها وسجل المبشرون عدداً كبيراً من أعمال العرافة الأخرى وكلها مطبوعة بالطابع السحري فهي تبدأ بتلاوة تعويذة سحرية على الكائن أو الشيء المستعمل. وفي الكونغو العليا يأخذون قدراً مملوءاً بالماء المستعمل من المستنقع أو من الغابة ويلقون فيه شيئاً من السحر ويضعونه فوق النار وبعد فترة يتساءلون هل الأعداء سيقتلونهم في الموقعة. فإذا شرع الماء في الغليان وأخذ في الارتفاع حتى وصل إلى حافة القدر، كان معنى ذلك أنه سيسقط من بينهم بعض القتلى وحينئذٍ يعدلون عن الحرب. وإذا لم يصعد الماء وجهوا إليه هذا السؤال: «هل سيقتل بعضهم في الموقعة؟ فإذا صعد بعد ذلك دل على أنهم سيقتلون بعض الأعداء. وحينئذٍ يتأهلون للحرب. وتوجد طريقة مشابهة عند قبائل الزولو. وتجري العرافة على حوادث المستقبل من كل نوع كمعرفة ما إذا كان المريض سيبرأ أو معرفة جنس الطفل الذي سيولد، أو إذا كان المحصول سيجود، أو إذا كان المطر سينزل ..إلخ ولكن كثيراً ما يراد منها أيضاً اكتشاف شيء مخبوء أو الحصول على خبر مهم عن حادثة ماضية كأن يكون هناك مثلاً مسافر لم يرد عنه خبر منذ زمن طويل ويراد معرفة حاله، أو كأن يفقد شيء ويراد معرفة مكانه، وما إذا كان قد فقد أو سرق! أو كأن يقع أمر ضار بالهيئة الاجتماعية ويراد معرفة مرتكبيه. وفي غينيا الجديدة تعد معونة الساحر أمراً عظيم

الأهمية في البحث عن معرفة السارق. فإذا سرق شيء ما ولم يستطع صاحبه تعيين السارق ذهب إلى من يملك الطلسم القادر على الكشف عنه. فيأخذ هذا الأخير فأساً ويضرب نباتاً متسلقاً معيناً. وكلما ضرب ضربة نطق بأحد الأسماء. فإذا أصابت الفأس النبات كان الاسم لشخص بريء، وإذا أخطأته كان صاحب الاسم المذكور في هذه اللحظة بعينها هو السارق. وهناك طرق مختلفة لمعرفة السارق.

والعمليات العرافية عند الأسكيمو مقصورة على المطبب. وإذا أراد هذا أن يقوم بعملية من هذه العمليات وجب عليه أن يجعل نفسه في حالة نوم اصطناعي أو في حالة خدر أو تجل، أي أنه ينتقل إلى عالم القوى الخفية ويتصل بها اتصالاً روحياً فيسمع الأموات ويراهم، ويقطع في أقل من لمح البصر أبعد المسافات بطريق الهواء دون أن يراه. وهناك عرافة تجري بواسطة بلورة أو مرآة أو سطح سائل. وفي غرينلاند إذا ذهب أحد الأهلين إلى البحر ولم يعد في الميعاد المنتظر زعم الأهلون أنهم يستطيعون اكتشاف ما إذا كان قد مات أو ظل على قيد الحياة. فيأتون بأقرب شخص للغائب ويأمرونه بأن يميل رأسه فوق طست خشبي مملوء بالماء، ثم يقرعون رأسه بعصا ويزعمون أنهم في هذه الأثناء يلمحون الغائب في هذه المرآة مقلوباً بزورقه في قاع الماء أو جالساً مستقيماً في زورقه وهو يحركه بمجدافيه.

ويعتقد الأهالي بأن هؤلاء المطببين والسحرة على وجه العموم موهوبون ببصيرة خاصة، وأن عينهم تدرك ما لا يراه الآخرون وكذلك يعدونهم فوق البشر في حياتهم، بل وبعد موتهم في كثير من الأحيان[1].

---

[1] Lévy-Bruhl: L'âme primitive, Paris 1928. Deuxième Edition, pp.124-128.